

لا بديل عن الدين

ومن الناس مَنْ يتصور إمكان الاستغناء عن الدين بالعلم الحديث حيناً ، أو المذاهب الفكرية « الأيديولوجيات » الحديثة حيناً آخر .

وكلا التصورين خطأ .

فقد بينَّ الواقع الناطق أنه لا شيء يغني عن الدين ، ويقوم بديلاً عنه في أداء رسالته الضخمة في حياة الإنسان .

• العلم ليس بديلاً عن الدين :

أما العلم فليس بديلاً عن الدين والإيمان بحال . فإن مجال العلم غير مجال الدين . وأريد بـ « العلم » هنا العلم بمفهومه الغربى المحدود ، لا بمفهومه الإسلامى الشامل . الذى يشمل العلم بالظواهر الجزئية للكون ، والعلم بحقائق الوجود الكبرى . أى ما يشمل علم الدنيا ، وعلم الدين . فليس هو علم المادة وخواصها فحسب ، بل العلم المتعلق بالكون والحياة والإنسان ، وخالقها سبحانه .

العلم بالمفهوم الغربى لا يصلح بديلاً عن الدين ، لأن مهمة هذا العلم أن يُيسّر للإنسان أسباب الحياة ، لا أن يُفسّر له أَلغازها . العلم يعين الإنسان على حل مشكلة العيش ، ولكن لا يعينه على حل مشكلة الوجود وقضاياها الكبرى .

ولهذا نرى أعظم البلاد فى عصرنا تقدماً فى العلم ، وأخذاً بأسبابه ، يشكو أهلها من الفراغ الروحى ، والقلق النفسى ، والاضطراب الفكرى ، والشعور الدائم بالتفاهة والاكْتئاب والضياع . ونرى شبابها ينقلبون بين شتى البدع الفكرية والسلوكية ، ناثرين على آية الحياة ، ومادية الحضارة ، وإن لم يهتدوا إلى المنهج السليم ، والصراط المستقيم .

وهذا هو سر العوج والشدوذ والانحرافات ، التى لمسها العالم كله فى سلوك أولئك الشباب الحائرين ، الذين يسمونهم « الخنافس » أو « الهيبين » وأشباههم ممن ضاق ذرعهم بتفاهة العيش ، وتمردوا على حضارة الغرب وإن نشأوا بين أحضانها .

إن العلم الحديث محدود الوسع ، محدود القُدرة ، محدود المجال .

فى وسع العلم أن يمنح الإنسان الوسائل والآلات ، ولكن ليس فى وسعه ولا من اختصاصه أن يمنحه الأهداف والغايات ، وما أتعس الإنسان إذا تكدّست لديه الوسائل دون أن يعرف لنفسه هدفاً ولا لحياته قيمة ، إلا أهداف السباع فى العدوان ، أو أهداف البهائم فى الأكل والسفاد ، أما هدف رفيع يليق بمواهب الإنسان ، وخصائص الإنسان ، وكرامة الإنسان ، فلا .

إن الدين وحده هو الذى يمنح الإنسان أهدافاً عليا للحياة ، وغايات كبرى للوجود ، ويجعل له فيه مهمة ورسالة ، ولحياته قيمة واعتباراً ، كما يمنحه القيم الخلقية والمثل العليا التى تحبسه عن الشر ، وتحفزه على الخير ، لغير منفعة مادية عاجلة .

لقد أعطى العلم الإنسان جناحى طائر فحلّق فى الفضاء ، وأعطاه خياشيم حوت فغاص فى أعماق الماء ، ولكنه لم يعطه قلب إنسان !

وحين يعيش الإنسان فى الحياة بغير « قلب الإنسان »
تستحيل أدوات العلم فى يديه إلى مخالب وأنياب تقتل
وترهب ، وإلى معاول وألغام تنسف وتُدمر .

تستحيل أدوات العلم إلى أسلحة نووية ، وقنابل نابالم ،
وغازات سامة ، وأسلحة كيماوية وجراثومية تنشر الموت
والخراب عند استعمالها ، وتشيع الذعر والخوف قبل
استعمالها (١) .

أجل .. قد استطاع العلم أن يضع قدم الإنسان على
سطح القمر ، ولكنه لم يملك أن يضع يده على سر
وجوده وغاية حياته !

لقد اكتشف الإنسان بالعلم « أشياء » كثيرة . ولكنه لم
يكشف حقيقة نفسه ! أوصله علم القرن العشرين إلى

(١) انظر : كتاب « الأسلحة الكيماوية والجراثومية » تأليف
الدكتور نبيل صبحى ، لترى ما يحضره أعداء الإنسانية لإفناء
الأحياء بسلطان العلم ومقدرة العلماء !! نشرته « مؤسسة الرسالة »
ببيروت .

القمر . ولكن لم يوصله إلى السعادة والطمأنينة على ظهر الأرض ! جلب من هناك بعض الصخور والأتربة ، ولكنه لم يجد هناك ما يُخرجه من التعاسة والقلق والضياع فى كوكبه !

أصلح العلم ظاهر الإنسان ، وعجز عن إصلاح باطنه ، لم يستطع أن ينفذ إلى تلك « اللطيفة الربانية » المدركة الواعية ، الشاعرة الحساسة ، التى إذا صلحت صلح الإنسان كله ، وإذا فسدت فسد الإنسان كله ، ألا وهى القلب ، أو النفس ، أو الروح ، سمها ما شئت ، فهى حقيقة الإنسان !

أعطى العلم إنسان القرن العشرين سلاحاً انتصر به على بعض قُوى الطبيعة ، ولم يعطه ما ينتصر به على نفسه : على شهواته ، وشككه ، وقلقه ، وخوفه ، وتخبطه ، وصراعه الداخلى والاجتماعى .

لقد تقدّم الطب الحديث والجراحة إلى أقصى حدودهما فى هذا القرن ، وبدأ الأطباء يقولون : إن العلم يستطيع

القضاء على كل مرض غير الموت والشيخوخة !! ولكن الأمراض تكثر وتتشعب وتنتشر بسرعة مذهلة ، ومنها « الأمراض العصبية » و « النفسية » التى هى نتائج وأعراض « التناقض » الشديد الذى يمر به الفرد والمجتمع .

لقد حاول العلم الحديث أن يُغذّي كل الجوانب المادية فى الجسم الإنسانى ، ولكنه فشل فى تغذية الشعور والأمانى والإرادة . . . وكانت حصيلة ذلك جسماً طویل القامة ، ممتلئ النواحي ، ولكن الجانب الآخر من الجسم - وهو أصل الإنسان - أصبح يعانى من أزمات لا حدّ لها .

لقد أكّدت إحصائية : أن ثمانين فى المائة (٨٠ ٪) من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضاً ناتجة عن الأعصاب من ناحية أو أخرى ، ويقول علم النفس الحديث : إن من أهم جذور هذه الأمراض النفسية : الكراهية والحقْد والجريمة والإرهاق واليأس والترقب والشك والاثرة والانزعاج من البيئة . وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الإيمان بالله .

إن هذا الإيمان بالله يمنح الإنسان يقيناً جبّاراً حتى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب ، فهو يجاهد فى سبيل هدف سام أعلى ، ويغض بصره عن الأهداف الدنيئة القدرة .

إن الإيمان بالله يعطى الإنسان « محرّكاً » هو أساس سائر الأخلاق الطيبة ومصدر قوة العقيدة . . . العقيدة التى عبّر عنها السير « وليام أوسلر » بقوله : إنها قوة محرّكة عظيمة ، لا توزن بأى ميزان ، ولا يمكن تجربتها فى المعامل .

إن هذه العقيدة هى سر مخزن الصحة المفورة التى يتمتع بها أصحابها . وأية نفسية محرومة من هذه العقيدة لن تنتهى إلا بالأمراض أقساها وأعتاها .

ومن شقوة الإنسان أن علماء النفس يبذلون كل ما يمكنهم من الجهود فى الكشف عن أمراض نفسية وعصبية جديدة ، ولكنهم فى نفس الوقت يهتمون بذل الجهود للوصول إلى علاج هذه الأمراض ، وهذه الظاهرة تثير شعوراً كثيباً بأن هؤلاء العلماء قد أخفقوا فى الميدان

الأخير ، ولذلك أكبوا على الميدان الثانى يسترون خيبتهم
ويظهرون بطولتهم أمام العالم !

وإلى ذلك أشار أحد العلماء المسيحيين قائلاً : إن علماء
الطب النفسى يبذلون كل جهودهم فى كشف
أسرار « القفل » الدقيقة الذى سوف يغلق علينا كل
أبواب الصحة !

فالمجتمع الجديد يسير فى اتجاهين فى وقت واحد ، فهو
يحاول من جهة الحصول على جميع الكمالات المادية ،
على حين يتسبب - لتركه الدين - فى خلق أحوال تجعل
من الحياة جحيماً ، إنه يعطيك دواء الشفاء من الفم ،
ويحقنك السم فى العضل !! (١) .



● الأيديولوجيات الحديثة لا تغنى عن الدين :

وإذا كان العلم لا يصلح قَطُ بديلاً عن الدين ، فمثله
المذاهب الفكرية الوضعية « الأيديولوجيات » التى أصبح

(١) عن كتاب « الإسلام يتحدى » ، تأليف : وحيد الدين
خان ، تعريب : مظفر الإسلام خان ، ص ٢٧٧ - ٢٧٩

لها فى عصرنا دعائها ومبشروها . فهى لا تستطيع أبداً أن تقوم مقام الدين . وهذا أحد الخبراء العالمين بالمذاهب والحضارات يحدثنا عن ذلك . فلنستمع إليه .

يقول « أرنولد توينبى » فى كتابه « العادة والتغيير » :
« إن من الخصائص الأساسية للإنسان « الإدراك » . .
إدراك وجوده . . وإدراك العالم المحيط به . . سواء من البشر أو العالم المادى وغير المادى . . هذا الإدراك هو ما جعل الإنسان مختاراً فى تصرفاته ، ذا إرادة فيما يتخذ من قرارات . . فقد قاده هذا الإدراك إلى اكتشاف أنه لا يعلم عن العالم الذى يعيش فيه إلا القليل من القشور . . وأن هذا القليل الذى يعرفه لا يستطيع أن يُفسّر له سر الحياة والكون . ولقد أدرك أن الكلمة الأخيرة فى مصيره ليست فى متناوله . . ولكنها ملك قوى قاهرة ، عليه أن يتعرف عليها ، وأن يعيش متوافقاً معها متصلاً بها .

وحيث إن الدين جزء من الطبيعة البشرية . .
وحيث إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش دون دين من نوع ما . . فلقد ترتب على تراجع الدين عن موقعه فى

أوروبا أن قامت ديانات بديلة تسمى : المذاهب
الفكرية ، أو « الأيديولوجيات » الفردية أو
الرأسمالية ، والجماعية أو الشيوعية ، والوطنية أو
القومية .

إن الحرب الباردة التى يستعر أوراها بين « الأيديولوجيات »
المعاصرة من جانب ، والأديان العليا (السماوية) من
جانب آخر هى أخطر - بالنسبة لمستقبل البشرية - من
المشادة بين الشيوعية والرأسمالية ، بالرغم مما يلقاه الحوار
بينهما من اهتمام عالمى . فهل هذه « الأيديولوجيات »
أديان جديدة أم انتكاسات ؟

فى الحق إنها ليست أمراً جديداً . . إنها انتكاسة للحرية
التي اكتسبها الإنسان عبر العصور . . إنها تأخر ورجعية
إلى فجر الحضارة حينما كان الإنسان يعبد ما لا يستطيع أن
يسيطر عليه من قُوى غامضة ، وهو حينما تقدّم واستطاع
أن يكون له دور مهم فى البيئة الطبيعية . . ترك عبادة قُوى
الطبيعة ، وعبد قُوته الجماعية كما تتمثل فى الحاكم .

إن الشيوعية قد أخطأت السبيل - لا فى إصرارها على

العدالة الاجتماعية - ولكن فى توضيحها بالحرية من أجل
العدالة .

والرأسمالية أيضاً قد أخطأت السبيل - لا فى إصرارها
على احترام فردية الإنسان وحرية - ولكن فى توضيحها
بالعدالة فى سبيل الفردية .

إن كلا منهما يؤيد جانب على حساب الآخر . . وكلتا
النظريتين مادية ، وكما كان الإنسان لا يستطيع أن يحيا
بالخبز وحده . . فإن هذين التفسيرين الماديين للعدالة
والحرية تفسيران خاطئان .

على أنه يبدو أن كلتا العقيدتين ستستمر فى الحياة ، ولن
تستطيع إحداهما التغلب نهائياً على الأخرى . . والاثنتان
فى صراع مع الوطنية أو القومية . . ولو أن هذا
الصراع لا يحظى باهتمام كبير . . ولكنه ما إن تصطدم
إحداهما مع الوطنية حتى تنتصر الوطنية . . وحينئذ يصبح
الشيوعى والرأسمالى وطنياً أولاً وتتبعها صفته الثانية :
الشيوعية أو الرأسمالية .

إن جميع « الأيديولوجيات » تشترك فى نقطة ضعف

واحدة قد تودى بها جميعاً ، وذلك فى منافستها للأديان العليا على اكتساب ولاء الجماهير .

وهذا معناه العودة إلى عبادة الإنسان .. فبعد أن حرّته الأديان من عبودية المجتمع ، وعبودية الفرد ، ليتجه إلى الله وحده .. عاد الإنسان إلى سجن المجتمع ، وبعد أن كان فى علاقة مباشرة مع الحقيقة الخالدة .. عاد إلى ديكتاتورية العصور البائدة .

فتضاءل ليصبح مجرد غملة اجتماعية فى مجتمع النمل !!
لقد استطاعت الأديان أن تُعلّم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية .. ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار .. ولن تستطيع « الأيديولوجيات » أن تنسيه هذه الحقيقة .. لأنها لا تستطيع أن تحقق له الانعتاق الروحى الذى منحته له الأديان . صحيح أن بعض الأديان قد أقامت سجوناً من صنعها ، حينما خلقت من الأجهزة والنظم ما أصبح حاجزاً بين الإنسان وخالقه ، كما كان يصنع المجتمع القديم من قبل .. وهذا التحكم والتسلط من جانب بعض الأجهزة الدينية يتناقض أساساً مع سبب وجودهما فإنها

وُجِدَتْ لتحرر الإنسان من إفسار المجتمع ، وتضعه مباشرة أمام مسؤولياته فى علاقة مباشرة مع الحقيقة السرمدية الخالدة . . ومع ذلك فبالرغم من هذا التسلط والتحكم من جانب بعض الأديان ، إلا أنها استطاعت أن تمنح معتنقيها هدية لا تستطيع أن تجاريها فيها « الأيديولوجيات » الحديثة . . لقد منحته الاطمئنان من المساعدة والتوجيه والمثل الأعلى الخلق بالطموح . . لقد منحته الراحة الروحية وحررته من سجون المجتمع .

إن كل إنسان يخطئ ويفشل . . ويزل ويشقى . . وفى النهاية ينتهى إلى الموت ، ومن هنا جاءت حاجته العميقة إلى العون الروحى الذى لا يستطيع أن تقدمه له « الأيديولوجيات » .

ومع هذا فإن « الأيديولوجيات » ستستمر فى اجتذاب الناس إلى حظيرتها ما لم تعمل الأديان على أن تستعيد سلطانها على قلوب البشر . . وهى لن تستطيع ذلك إلا إذا صدقت مع نفسها واستطاعت :

١ - أن تتعاون بدلاً من الصراع والعداوة .

- ٢ - وأن تهتم اهتماماً جدياً بحقائق العصر الحديث .
٣ - وأن تنفض عنها الطقوس التى طغت على جوهرها ..
مما تراكم من الخزعبلات عبر العصور .

فالدين هو قلب الحياة للإنسان .. وهو جوهر الحياة للإنسانية .. هو النور الذى يغمر القلوب ، فلا غنى للإنسان عن الدين .. ولن تستطيع « الأيديولوجيات » أن تحل محل الدين لأنها تمنحنا التعصب والتباغض ، بدلاً من أن تمنحنا المحبة والتعاون ، إنها قد تمنحنا لقمة الخبز ، ولكنها تسلبنا الطمأنينة النفسية والتحرر الروحي « (١) .



● الرد على دعوى الماركسيين :

أما ما يردده الماركسيون من أن الدين « أفيون الشعوب » فهو ادعاء باطل ومردود من وجهين :

(١) عن مجلة « الوعي الإسلامى » السنة الثالثة - العدد السابع والعشرون - مقال « الأيديولوجيات والدين » . ترجمة الأستاذ محمد همام الهاشمى الخبير الاجتماعى بمجلس التخطيط بالكويت .

الأول : أن الدين الصحيح لا يُخدّر الشعب ، ولا يلهيه عن المطالبة بحقه فى الدنيا ، استغراقاً بطلب النعيم فى الآخرة ! الدين الصحيح لا يقر الظلم ، ولا يرضى بالفساد والانحراف ، فإن صح هذا الادعاء فى شأن بعض الأديان ، فلا يصح بحال فى شأن الإسلام .

الإسلام فى الحقيقة ثورة إنسانية كبرى . . ثورة لتحرير الإنسان - كل إنسان - من العبودية والخضوع لغير خالقه . . ثورة فى عالم الفكر والضمير والشعور ، وثورة فى عالم الواقع والتطبيق .

وكان عنوان هذه الثورة هى هذه الكلمة العظيمة ، كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » فكل مدّع أو متعاط للألوهية فى الأرض ، بالقول أو بالفعل ، هو مزور لا وجود له . ولا يستحق البقاء . وكل الذين زعموا لأنفسهم - أو زعم لهم بعض الناس - أنهم أرباب مع الله ، أو من دون الله ، يجب أن يسقطوا إلى الأبد ، ويتواروا عن مسرح الحياة .

الناس إذن سواسية ، لا يجوز أن يستعبد بعضهم بعضاً ، أو يطغى بعضهم على بعض ، فإذا ظلم بعض الناس

وطغى وأفسد ، كان على الناس أن يعترضوا طريقه ،
ويأخذوا على يديه ، وإلا كانوا شركاءه فى الإثم
واستحقاق العقوبة العادلة من الله .

يقول الله الكريم : ﴿ وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا
تُنصَرُونَ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ
خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢) .

ويقول الرسول ﷺ : « إن الناس إذا رأوا الظالم ولم
يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده » (٣) .

ويوجب على كل من رأى منكراً - أى ظلماً أو فساداً
أو انحرافاً - أن يعمل على تغييره بكل ما يستطيع من قوته :
« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع

(٢) الأنفال : ٢٥

(١) هود : ١١٣

(٣) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلمه ، وذلك أضعف الإيمان « (١) .

والتغيير بالقلب - الذى هو أدنى الدرجات وأضعف الإيمان - ليس أمراً سلبياً تافهاً . إنها جمرة الغضب والكراهية للفساد والمنكر تتوهج وتتقد فى الجوانح حتى تجد الفرصة للتغيير بالقول أو الفعل ، باللسان أو اليد . وأدنى ثمراته العاجلة النفور من الظلمة والمفسدين والمقاطعة لهم ، فلا يؤاكلهم ولا يشاربهم ، ولا يجالسهم ولا يصاحبهم .

وقد عَدَّ النبى ﷺ مقاومة الظلم والفساد الداخلى ، كمقاومة الغزو والعدوان الخارجى . كلاهما جهاد فى سبيل الله . بل حين سئل : أى الجهاد أفضل ؟ قال : « كلمة حق عند سلطان جائر » (٢) فاعتبر ذلك أفضل الجهاد وأعلاه .

(١) رواه مسلم وغيره .

(٢) رواه النسائى بإسناد صحيح كما فى « الترغيب » .

فهذا دين يحرض على مقاومة الظلم حتى الموت .
ويعد الميت فى سبيل ذلك شهيداً فى سبيل الله ، بل فى
طليعة الشهداء المرموقين ، بجوار حمزة بن عبد المطلب ،
سيد الشهداء كما قال عليه الصلاة والسلام : « سيد
الشهداء حمزة ، ورجل قام إلى إمام جائر ، فأمره
ونهاه فقتله » (١) .

إن الإسلام يُربّي المسلم على الشعور بالكرامة وعزة
النفس ، ويجعل ذلك من خصائص الإيمان وآثاره :
﴿ وَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ، بل من
خصائص الإنسانية ولوزامها : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ (٣) .

ولهذا يبرأ الإسلام من كل من يرضى لنفسه بالذل
والمهانة ، ويصبر على القيد يوضع فى رجله ، أو الغل
يوضع فى عنقه دون أن يقاوم الظلم ، أو يحاول التخلص

(١) رواه الحاكم والضياء عن جابر وجسّنه الألبانى فى صحيح
الجامع الصغير .

(٣) الإسراء : ٧٠

(٢) المنافقون : ٨

منه ، ولو بالهجرة إلى أرض الله الفسيحة . يقول القرآن : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجَرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (١) .

ويرد الرسول ﷺ منطق الاستسلام الجبرى أو السلبي لأحداث الحياة ووقائع الدهر ، باسم الإيمان بالقدر . ويعتبر ذلك ضرباً من العجز المذموم فى دين الله . إن النبى صلى الله عليه وسلم قضى بين رجلين ، فقال المقضى عليه لما أدبر : حسبى الله ونعم الوكيل ! فقال النبى ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر ، فقل : حسبى الله ونعم الوكيل » (٢) .

كره النبى العظيم من الرجل أن يوارى عجزه بالحسبة والحوقة ، بدل أن يواجه الأمر بما ينبغى له من الحكمة والتفطن . فذكر الله فى غير موضعه عجز واستسلام .

(١) النساء : ٩٧ (٢) رواه أبو داود برقم (٣٦٢٧) .

ومن هنا جاء فى وصاياه صلى الله عليه وسلم :
« المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف
... احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز » (١) .

وجاء فى أدعيته التى علّمها لبعض أصحابه : « اللَّهُمَّ
إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ
وَالْكَسَلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجَبَنِ وَالْبَخْلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ
غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ » (٢) .

ففى هذا الدعاء استعاذة بالله تعالى من كل مظاهر
الضعف التى تعترى الإنسان فتغلبه وتقهره وتذله .

ومثل ذلك ما جاء فى دعاء القنوت : « اللَّهُمَّ إِنَّا
نَسْتَعِينُكَ وَنَسْتَهِدُكَ وَنَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوبُ إِلَيْكَ ، وَنُؤْمِنُ بِكَ
وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْكَ ، وَنُثْنِى عَلَيْكَ الْخَيْرَ كُلَّهُ ، نَشْكُرُكَ وَلَا

(١) رواه مسلم . . والعجز : ترك ما يجب فعله بالتسوية ،
والكيس : العقل وحسن التصرف .

(٢) رواه أبو داود برقم (١٥٥٥) وفى سنده راوٍ لِيْن الحديث ،
ولكن المفردات المستعاذ منها ثبتت فى الصحاح .

نكفرك ، ونخلع ونترك مَنْ يفجرك » .. فانظر ما تحمله هذه العبارة : « ونخلع ونترك مَنْ يفجرك » من تحريض سافر على خلع ومقاومة كل ظالم فاجر ، مهما تكن مكانته ومنصبه فى الناس .

فهل يقال فى مثل هذا الدين الذى يدعو إلى الثورة على الباطل والضعف والعجز والعبودية ، ويحرّض على نُصرة الحق والقوة والحرية - إنه أفيون الشعب : يُخدره ويمنيه بنعيم الجنة ، ليسكت على مظالم حياته الدنيا !!؟

لعل « ماركس » كان معذوراً حين قال ما قال ، لأنه لم يعرف الإسلام ، ولم يعرف موقفه من الظلم والبغى والفساد ، مع أن المنهج العلمى كان يُلزمه ألا يصدر حكمه عاماً شاملاً إلا بعد استقراء كامل ، ودراسة تامة لكل الأديان - أو للأديان الكبرى على الأقل - وأثرها فى الأمم على مدار التاريخ ، فإن لم يستطع كان عليه أن يحكم على الدين الذى عرفه لا على غيره . هذا هو مقتضى الأمانة العلمية ، والمنهج العلمى .

قلت هذا عن « ماركس » منذ سنوات ونشرته مجلة

« منار الإسلام » فى دولة الإمارات العربية المتحدة . ثم أتيح لى أن أقرأ أخيراً ما كتبه الأستاذ الدكتور رشدى فكّار - المتخصص فى دراسة الماركسية وفلسفتها وأصولها ومدارسها - عن رجوع « ماركس » فى أخريات حياته إلى الاعتراف بالدين بعد الرفض له ، وأن رفضه فى المراحل الأولى كان سياسياً ولم يكن فلسفياً . . وأن بعض مفكرى الماركسية الكبار من المعاصرين أمثال « روجيه جارودى » (١) أكّدوا ذلك ، واعتبروه « مرونة » من ماركس . واعتبره « فكّار » : « ارتداداً » ، والأولى تسميته « رجوعاً » .

ينقل الدكتور فكّار عن « ماركس » قوله بصريح العبارة : « الإلحاد لا معنى له ، لأنه إنكار للإله بلا مبررات ، اللهمّ إلا إذا كان الهدف أن يحل الإنسان محل الإله » ! ويكرر « ماركس » نصاً : « الاشتراكية ليست فى حاجة إلى مثل هذه الشطحات التجريدية الجوفاء ، والمضاربة على الإله » .

(١) كُتِبَ هذا الكلام قبل أن يهتدى « جارودى » إلى الإسلام .

ومن الأدلة على تغير موقف « ماركس » : الرسالة التى وجهها إلى « البابا » يهنئه فيها على موقفه من « الحلف المقدس » ورفضه الدخول فيه ، والانضواء تحت لوائه : حلف أولئك الذين شوّهوا جوهر الدين ، حين اتخذوا منه « شُرطة روحية » فى خدمتهم والدين منهم براء !

ومن ذلك مهاجمته للفيلسوف الملحد المشهور « فيورباخ » حيث وصفه « بأنه جعل من الوجدان والروح الدينية شيئاً راكداً جامداً ، لا قدرة فيه أو له على التغير » .

و« فيورباخ » هو صاحب الكلمة الجاحدة الجاهلة : « ليس صواباً أن الله خلق الإنسان ، بل الصواب : أن الإنسان هو الذى خلق الله » ..

وكبرت كلمة خرجت من فيه ، ما قال إلا كذباً .

وأكثر من ذلك وأصرح وأوضح : هذا النص الذى يقول فيه « ماركس » حرفياً - كما يقول الدكتور فكّار - : « إن الإلحاد قد عاش وقته .. إنه تعبير سلبي ، لا يعنى

شيئاً بالنسبة للاشتراكيين الأصلاء ، إن المعنى لديهم ليس هو إنكار الإله ، وإنما هو تحرير الإنسان « (١) .

ولكن مهما يكن عذر « ماركس » فما عذر الذين نشأوا فى ديار الإسلام ، ولم يكلفوا أنفسهم أن يدرسوه من مصادره ومن كتابات المحققين من علمائه ودعاته ؟

إن الذى يقرأ الكتب الإسلامية يراها طافحة بإنكار علماء الدين وأئمتهم على الظلم والظلمة ، والمناداة بإنصاف المظلومين من طبقات الشعب الكادحة (٢) .



(١) انظر فى هذا : فصل « فى الماركسية والدين » من كتاب « تأملات إسلامية فى قضايا الإنسان والمجتمع » ص ٥٥ - ٦٨ نشر مكتبة وهبة - القاهرة .

(٢) انظر : كتاب « مواقف حاسمة للعلماء فى الإسلام » للأستاذين : على شحاتة وأحمد رجب ، فيه أمثلة عديدة على ذلك . وخاصة فى فصل « حماة الشعب » .

أثر الإسلام فى حركات المقاومة والتححرر من الاستعمار

إن الذى يقرأ التاريخ الحديث يجد أن التيار الإسلامى كان وراء كل حركات المقاومة المستميتة للاستعمار فى كل صِقع من ديار الإسلام .

يقول الأستاذ « برنارد لويس » فى كتاب « الغرب والشرق الأوسط » :

« ومنذ بدء التغلغل الغربى فى العالم الإسلامى ، حتى يومنا هذا ، كانت أهم الحركات الفكرية المتميزة المهمة الأصلية التى قامت فى وجهه : حركات إسلامية .

« ولقد كان اهتمام هذه الحركات بمشاكل الإيمان والعقيدة ، وبمشاكل الجماعة المسلمة التى سيطر عليها غير المسلمين ، أكثر من اهتمامها بأرض أو بلد احتله الأجانب .

« وأقوى الحركات الثورية التى قامت ، والتى كسبت أقوى التأييد ، وأثارت حماس أغلب الجماهير كانت دينية شعبية فى أصولها ، وفى شعاراتها ، وفى الأسلوب الذى عبّرت به عن غايتها وسبلها .

« ولقد مرَّ العالم الإسلامي في تاريخ مواجهته الطويلة للمدنية الغربية بمراحل متعددة من اليقظة والمقاومة ، من المسيرة والرفض . . وحتى الأمس القريب كان للمشاكل التي تظهر دراسة ، وقياس ، وحلول في إطار الإسلام .
« ونستطيع القول في أيامنا هذه : إن من التهور التأكيد على أن « علمنة » المشاعر الإسلامية بلغت حدّاً لا رجوع بعده » (١) .

وفي موضع آخر يقول صاحب كتاب « الغرب والشرق الأوسط » :

« وأهم حركات المقاومة للغربيين المنتصرين المحتلين ، وأكثرها نجاحاً ، كانت في الأناضول ، حيث قام جمع من الثوار بقيادة مصطفى كمال ، وتحذوا الحلفاء واليونان والحكومة العثمانية التي كانت قائمة في ظلهم .

« ولقد حجبت علمانية وقومية الكماليين التي أعلنوها

(١) الغرب والشرق الأوسط : ترجمة الدكتور نبيل صبحي

أخيراً ، الطابع الإسلامى القوى لحركة المقاومة فى أول
مراحلها ، ولقد كان شعار الحركة : تحرير أرض الإسلام ،
وشعوب الإسلام ، وتحرير الخليفة - السلطان - وطرد
الغزاة المشركين .

» ولقد كان الزعماء الدينيون من العلماء ومن حركة
الإخوان الدراويش ، أبرز المؤسسين ، وأقوى المساندين
لحركة المقاومة ، التى قادها - بعد ذلك - مصطفى كمال ^(١) .

أى إن حركة المقاومة كانت فى أساسها إسلامية ، غذتها
الروح الإسلامية والمشاعر الإسلامية ، ثم سرقها وقادها
العلمانيون القوميون : مصطفى كمال وأشياعه ، ونسبوا
فخرها لأنفسهم ، وقطفوا ثمارها لعلمانيتهم .

والوجه الثانى فى الرد على الماركسيين : أن الذى عابوه
على الدين وقعوا هم فيه ! عابوا على الدين ما فيه من
غيبات وتنبؤات مستقبلية مجهولة ! ومذهبهم ملئ بالحتميات
والتنبؤات التى يكنها صدر الغيب !

(١) المصدر السابق ص ١٦٨

عابوا على الدين ما فيه من تعظيم للأنبياء والقديسين ، وما فيه من رسوم وشعائر تعبدية . ومع هذا نجدهم قد اتخذوا الأسلوب نفسه ، فإن الماركسية - كما هو معلوم لدى دارسيها ونُقَّادها - ليست مجرد فلسفة باردة ، إنها ديانة ، لها عقائدها وإنجيلها ، ورسُلها وقديسوها وطقوسها وشعائرها ، « وإن حشود المتعبدين يمرون يومياً فى « موسكو » أمام جثمان « لينين » فى لحدّه الرخامى الأسود ، وعلى وجوههم أمارات الخشوع والإجلال ، مرور المؤمنين من قبل أمام رفات الشهداء » ^(١) (يعنى : فى المسيحية ، فالإسلام يعتبر هذه المظاهر من الشرك والوثنية) .

يقول الباحث الباكستانى الأستاذ ميرزا محمد حسين فى كتابه عن « الإسلام وتوازن المجتمع » ^(٢) :

(١) كرمنلو ص ١٥٣ وما بعدها . نقلاً عن المذاهب الأخلاقية للدكتور عادل العوا : ٢٠٣/٢ ، ومن قريب رأينا الجماهير الغفيرة بالملايين فى الصين الشيوعية تقف وقفة التقديس والخشوع نفسها أمام جثمان الزعيم الصينى « ماو » فكيف يفسّرون هذا الموقف تفسيراً مادياً وفقاً لفلسفتهم التقليدية !!؟

(٢) ترجمة فتحى عثمان ص ٧٩

« إن البلشفية (الشيوعية) تستميت فى عداء الدين ،
من أجل مظاهره الغامضة ، وعدته من الطقوس والشعائر ،
ومع ذلك لم تحرز البلشفية تفوقها إلا بانتحال أساليب
الدين ووسائله . ومن هنا تُدعى الآن « ديناً » .

أما كتبها المقدسة فهى تعاليم « كارل ماركس » التى
يُنظر إليها بكل إجلال ، باعتبارها كشفاً وإلهاماً ، كما
يُنظر إليها باعتبارها معصومة من أى خطأ !

وللشيوعية شُرَّاحها ومريدوها ودعاتها ، حتى شهداؤها !
ولها عقائدها وأصولها ، وبدعها الزائفة المرفوضة !
وهى تأخذ فى مطاردة الهراطقة . . وفى تصفية الزنادقة ،
وفى إقامة محاكم التفتيش ، وفى عمل المذابح ضد
المتشككين والمنكرين والمرتدين !

ولها طرائقها فى « الإلهام » و« الحرمان » !
ولها معبد أوثانها ، وأيقوناتها . الفاتيكان لديها هو
« الكرملين » . والوثائق البابوية هى كتابات « ستالين » !

ولها طقوسها ورموزها المعقّدة مثل أى دين ! (١) .
وإنها لتشغل قلوب أتباعها بوعود الخلاص ، وآمال
المستقبل ، والجزاء المنتظر فى نعيم الدنيا !!
وهى تتظاهر بأنها لا تعرض للدين فى معانيه الموروثة
التي تلقى احترام الناس ، كما أنها لا تحاول إصلاح
مفاهيمه إصلاحاً سليماً يُعتمد به .
ولكنها تعمل على أن تطوى الدين تماماً وتحل محله

(١) « الخطيئة » - فى نظر هذه الديانة - هى الرأسمالية ،
و« إبليس وجنوده » هو : القُوَى البرجوازية والرجعية ،
و« المُخلّص » هو الحزب ، و« مملكة السماء » هو الشيوعية ،
و« الكهنة » هم المحترفون الثوريون الذين يستشفون أعماق
الطبقة الكادحة ، ويتلقون الأسرار الحقيقية من خلال « رؤاهم »
ويذيعونها على « المؤمنين » ، وأخرويات هذه العقيدة الجديدة
ليست « ميثافيزيقية » ، بل هى أخرويات « علمية » ، فهى « اشتراكية
علمية » . أما الطقوس والابتهاالات فيلتمسها هؤلاء فى نظرية
وتكتيك الحزب عند لينين . . إلخ .

انظر : حلقة البحث الإسلامية : ما بعد النكبتين ص ٢٢ - ٢٣

شعارات معادية للألوهية ، ولكنها « دين » من طراز
غريب !

والواقع أن الذى ينبغى أن يُطلق عليه بحق أنه أفيون
الشعب هو : الإيمان بالشيوعية ، فهى التى تُمنى الناس
بجنة موهومة على الأرض ، جنة تختفى فيها الفوارق ،
وينعم الناس بالرخاء والأمن والمساواة والحرية .

وقد مضى على قيام أول دولة ماركسية نحو ستين سنة
وهم فى ظل ديكتاتورية متسلطة مستبدة لم ير التاريخ أشد
منها ظلماً وطغياناً وتجبراً . وأصدق شاهد على ذلك
حملات التطهير وحمّات الدم ، التى تُقام بين
حين وآخر .

ومن الغريب أن تجد فى أبناء المسلمين من ينادى بإبعاد
دينهم عن قيادة المجتمع ، وتوجيه الحياة فيه ، على حين
تجد من مفكرى الغرب من يترقب أو يتمنى أن يكون
للإسلام دور فى هداية المجتمع العالمى ، والأخذ بيديه إلى

الصراط المستقيم ، أو المنهج المتوازن الذى هو طابع هذا الدين .

يقول الدكتور « جرمانوس » : « إن مستقبل العالم وخلاصه من خطر الاصطدام الاجتماعى الذى يهدده ، لن يكون إلا فى المزاوجة بين الحضارة الأوروبية بدرسها وعلمها ، وبين الروح العالية التى تنطوى عليها عقائد الدين الإسلامى . وإنى أؤمل أن يكون الإسلام قادراً مرة أخرى على تحقيق هذه المعجزة فى سبيل وحدة الجماعة الإنسانية .. » .

